التغنى بالحرية

فى شعر خليل مطران

١

من يقرأ فى تاريخ العرب فى العصر الجاهلى وأخبارهم ترتسم أمامه تواً صورة العربى القديم ، وقد آمن بحريته إلى أقصى الحدود ، وحقاً كانت لقبيلته حقوق عليه ، ولكن هذه الحقوق لم تكن واسعة ، ولم تكن تتضارب أو تتناقض مع حريته الفردية . كان هناك سيد القبيلة ، ولكن سيادته كانت رمزية أكثر منها عملية ولم يكن يُبْرِم أمراً من سلم أو حرب دون الرجوع إلى شيوخ العشائر والبطون ، فلا بد له من استشارتهم ، ولا بد له من أن يستمع إلى أفراد القبيلة المختلفين ، فهم جميعاً متساوون فى الحقوق .

وظل للعربى شعوره القوى بحريته وكرامته فى ظلال الإسلام ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين لم يخضدوا من هذا الشعور ولا من حدّته ، ما دام لا يتعارض مع تعاليم الدين الحنيف ، ولا يتعارض مع حرية الآخرين فى الجماعة الإسلامية الجديدة .

وفى الوقت نفسه حارب الإسلام الطغيان والطغاة ممن يَلُون شئون الناس ، وفى القرآن الكريم : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . وفيه أيضاً . (إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمُنَّ على الذين استُضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكّن لهم فى الأرض ونُرِىَ فرعون وهامان

وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) . وفى مواطن كثيرة منه نجد حملة على الظلم والظالمين من مثل قوله جل وعز : (وسيعلم الذين ظلموا أىَّ منقلب ينقلبون) كما نجد دعوة إلى العدل والمساواة . وأكد الرسول ذلك فى خطبه ووصاياه ، حتى قال قوله المشهور : « لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » فالناس كلهم من عرب وموال لآدم ، وهم سواء فى كل الحقوق .

وبهذه الروح الكريمة أخذ الخلفاء الراشدون، فسوّوا بين العرب والأعاجم فى عصر الفتوح ، واشتهر عمر بن الخطاب بعبارات أثرت عنه ، فقد شكا له بعض الموالى من الولاة عليهم فأنهم قائلا قوله المأثور : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . وضرب على أيدى ولاته فى سبيل تقرير حقوق الموالى فى المساواة والحياة الكريمة ، وكان إذا اعتدى عليهم وال اقتصَّ منه بنفسه . وسار سيرته عثمان وعلى بن أبى طالب .

وعلى هذا النحو كان الخلفاء الأولون يشيعون العدل والحرية والمساواة بين الناس ، غير أن الخلافة سرعان ما انقلبت فى عهد بنى أمية إلى ما يشبه النظم الملكية المستبدة ، فإذا الطغيان والظلم ينتشران ، وكلما أمعنا فى العصور التالية ازداد استعباد الناس بعضهم لبعض ، حتى غُلب العرب على أمرهم ، وخرج الحكم من أيديهم إلى الأعاجم ، ولعل ذلك ما جعل المتنبى فى القرن الرابع الهجرى يصرخ :

وإنما الناس بالملوك وما تصلح عُرْبٌ ملوكها عَجَمُ
بكل أرضٍ وطئتُها أمَمٌ تُرْعَى بعبدٍ كأنها غَنَمُ

فهو يحمـــل على الملوك الأعاجم المستبدين ، ويطالب بحكام من العرب كالحكام الأولين الذين ساروا فى الناس سيرة عادلة حفظوا لهم فيها حريتهم وحقوقهم الإنسانية ، وصرخ من بعده أبو العلاء صرخته المعروفة :

مُلِّ المقامُ فكم أعاشر أمـــةً أمرتْ بغير صلاحها أمراؤُها

ظلموا الرعيَّةَ واستجازوا كيدها فعَدوْا مصالحها وهم أجَرَاؤُها

وذهبت هذه الصرخة وأمثالها ، صيحة فى واد ، إذ أخذت تتراكم محن الظلم والطغيان على صدور الناس ، وزادت مع الأيام ، وخاصة فى العصر العثمانى ، ثقلا ، فقد عم ظلام الطغيان والاستبداد ، وأهدرت جميع حقوق الإنسان ، ولم تعد مصر والشام وغيرهما من بلاد الدولة العثمانية سوى آلات تستغل لجمع الضرائب ، وما يطوى فى هذا الجمع من نظم السخرة والعسف الشديد .

وكان مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر بقيادة بونابرت فى أواخر القرن الثامن عشر وما رآه المصريون رأى العين من ضعف آل عثمان سبباً فى أن يتنبهوا إلى حريتهم وحقوقهم المسلوبة ، فقد أخذوا يشعرون شعوراً قوياً بكرامتهم وأجبروا الباب العالى أن يولى عليهم والياً يختارونه بأنفسهم ، واختاروا محمد على ، ولكنه لم يجر معهم إلى آخر الشوط ، فقد كانت عنايته بنفسه وبمطامحه أكثر من عنايته بمصر والمصريين . ولم ييأس المصريون ، فقد أخذوا يدفعونه دفعاً إلى أن يجعل مصر تُجارى أوربا فى نظمها وفى قوتها ، وانصبت عنايته على الناحية العسكرية واستقدم العلماء الأجانب ، وفتح المدارس ، ولم يلبث المصريون أن أشاروا عليه أن لا يكتفى بعلماء الغرب وأن يكون بجانبهم طائفة من العلماء الفنيين المصريين . وبذلك أصبحت الصلة مزدوجة بيننا وبين الغرب ، فكان يحضر علماؤه إلى مصر ويذهب المصريون إليه فى البعثات المختلفة للتعلم .

وسرعان ما وقف المصريون على نظم الحكم الغربية ، ورأوا من الضرورى أن يشاركوا فى الحكم ، ولكن استبداد محمد على كان لهم بالمرصاد . حينئذ عمد الجيل الأول الذى تعلم فى أوربا إلى وصف الحياة السياسية الأوربية لعل ذلك يبعث محمد على بعثاً يغيِّر من نفسه ويصلح من سياسته وأداة حكمه . ورفاعة الطهطاوى هو أول صوت مصرى ارتفع بتصوير حياة الغرب السياسية فى كتابه

« تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » فقد عرف شئون الفرنسيين حين استقر به المقام فى ديارهم إماماً للبعثة المصرية الكبيرة الأولى سنة ١٨٢٦ وقرأ الدستور الفرنسى الذى كان قائماً حينئذ لعهد أسرة البوربون . ونراه يحاول أن يصفه ، مقدماً لذلك بأن فيه أموراً ليست فى كتاب الله ولا سنة رسوله ، وكأنه يريد أن يحتاط لنفسه ، ولكنه لا يلبث أن يقول إنها من باب العدل ، وأن فرنسا عمرت به وتحضرت ، إذ العدل أساس العمران . ويأخذ فى سَرْد أهم ما احتواه الدستور الفرنسى مما تصلح به أمور الرعية ، مكثراً دائماً من التحفظ لأنه كان خاضعاً لنظام محمد على الفردى الاستبدادى ، وقد لاحظ فى وضوح أن الناس هناك متساوون فى جميع الحقوق وأن شريعتهم ضمنت لهم التمتع بالحرية الشخصية فى حدود القانون كما لاحظ أن الناس يُعْطون من أموالهم — بغير امتياز — شيئاً معيناً لبيت المال ، كلٌّ على حسب ثروته ، وأن كل شخص أهل لأخذ أى منصب كان ، وأن الحاكم لا يجور على إنسان . وكل ذلك ذكره رفاعة كما ذكر مجلسى النواب فى فرنسا وأن أعضاءهما موكلون عن الرعية فى كل شئون الحكم وقوانينه .

ولا ريب فى أن شعور رفاعة وأمثاله من أعضاء البعثات إلى الغرب بما ينبغى أن يصير إليه نظام الحكم فى مصر من العدل والإنصاف وإشراك الشعب هو الذى ساعد على تطور الحياة السياسية فى مصر لعهد إسماعيل ، فأنشئ النظام البرلمانى ، ولم يلبث أن خلفه توفيق واستعان بالإنجليز على حكم المصريين فاحتلوا مصر ، وكُمّمت الأفواه وعُقلت الألسنة ، غير أن بذور التحرر والطموح السياسى ظلت تعمل عملها فى البيئة الطيبة . وأخذنا نكافح الإنجليز ونجاهدهم جهاداً مريراً ، وعاد عبدالله نديم وأضرابه إلى مجالدتهم ، وحمل اللواء مصطفى كامل ، ومن حوله الشعب بكتّابه وشعرائه ينشدون أناشيد الحرية .

وفى هذه الأثناء كان الحكم العثمانى المستبد على أشده فى تركيا والبلاد التابعة لها : الشام والعراق وغيرهما ، وعبثاً حاول مدحت أن يصلح من أمر

السلطان عبد الحميد ، فقد وضع له دستوراً لإصلاح أداة الحكم ولكنه لم يستمع إليه ، بل قضى عليه، كما قضى على كل دعوة فكرية حرة فى دولته وولاياتها المختلفة ، واستغرق فى سياسته وطغيانه واستبداده ، بينما أخذت الدولة طريقها إلى هاوية التفكك والاضمحلال ، ففقدت كثيراً من أقاليمها فى البلقان ، واستولت فرنسا على تونس ، وهبت الثورات فى كل مكان ، وعبد الحميد وأعوانه يمدونها بالوقود من الاضطهاد للشعوب والاستبداد بالأفراد ومحاولة استعبادهم مع بث الفرقة بين الطوائف والملل وإشعال الأحقاد .

وهبت الصيحات من كل مكان فى الدولة العثمانية تطالب بالحرية وإصلاح الحكم، على لسان فرنسيس فتح الله مراش الحلبى وأديب إسحق وعبد الرحمن الكواكبى ، وكتابه « طبائع الاستبداد » وكذلك كتابه « أم القرى » أشهر من أن نقف عندهما . وكثر الصائحون من أمثال شبلى شميل وولى الدين يكن ، ولكن كأنما كان فى آذان عبد الحميد وأعوانه وَقْرٌ ، فظلوا لا يسمعون ولا يستجيبون ، حتى أذكوا روح الثورة فى الجيش ، فانضم كثير منه وعلى رأسهم أنور ونيازى إلى الثائرين ، وزحفوا زحفاً مفاجئاً على إستانبول فى سنة ١٩٠٨ وأكرهوا السلطان عبد الحميد على إعلان دستور جديد يحفظ للعثمانيين على اختلاف طبقاتهم وولاياتهم وأجناسهم حقوق العدل والمساواة بدون أى تمييز . وتطورت الأمور بعد الحرب العالمية الأولى فى هذا القرن فإذا فرنسا تحتل لبنان وسوريا ، وإنجلترا تحتل فلسطين والأردن والعراق . وأصبحت البلاد العربية جميعاً تعانى ظلم المستعمرين الغربيين وطغيانهم وتكافح ما حشدوا لها من جند وقوة وتثور عليهم ثورات متوالية تبذل فيها الدماء وعزيز الفداء . وتجمعت ثورات كل بلد عربى فى صدر أحد أبنائه ، وتفاعلت دماء الشهداء فى قلبه ، فإذا هو قائد للمعركة ضدّ المستعمرين ، وإذا أعلامهم تسقط فى كل مكان : فى الشام وفى مصر ، ولا يزال الكفاح والجلاد مستمرًّا فى بعض البلدان العربية ، ولكن النهاية المحتومة للمستعمر أصبحت قاب قوسين أو أدنى .

وقد ظل كتّابنا وشعراؤنا طوال القرن الماضى وفى هذا القرن يكافحون المستعمرين بسهام مقالاتهم وخطبهم وأشعارهم يصوبونها إلى نحورهم . وكأنما تحولت البلاد العربية إلى ما يشبه بركاناً ثائراً لا يزال يرمى المستعمرين بحممه وقذائفه ، حتى يولوا الأدبار عن ديارنا إلى غير رجعة ، إلى البحر وما وراءه . وكم من أنشودة للحرية أنشدها الشعراء يستثيرون بها همم مواطنيهم ، ويشحذون بها عزائمهم ، حتى يذيقوا المستعمرين وبال أمرهم ويردوهم عن أوطانهم خاسئين خاسرين.

٢

وخليل مطران فى طليعة شعرائنا الذين طالما تغنوا بالحرية ورتلوا أناشيدها ترتيلا ، وقد ولد فى لبنان سنة ١٨٧٢ وجو الطغيان التركى ينتشر فى ربوعها ، ولم تمض إلا سنوات معدودة بعد مولده ، وإذا عبد الحميد يصبح الخليفة الجديد ، فيزداد الطغيان ويزداد الاستبداد . وعبثا حاول مدحت « باشا » وجماعة تركيا الفتاة من بعده أن يردوه عن غيّه ، بل لقد نكل بمدحت وأخذ ينكّل بكل من يقف فى سبيل استبداده وطيشه مما اضطر كثيرين إلى الفرار عن البلاد إلى سويسرا وفرنسا . وهناك أخذوا يفكرون فى مصير أمتهم وفيما انتهت إليه من انتكاس لعهد هذا السلطان الذى أخذت تتقطع تحت عينه أوصال إمبراطورية الترك العتيقة .

وجرى الشعر على لسان خليل مطران ، وهو يشعر فى أعماقه ببؤس وطنه وما يرزح تحت أثقاله من استبداد عبد الحميد وبطانته ، ولم يلبث أن ثار فى شعره على هذا الاستبداد وما يطوى من أغلال وقيود ، وعلم بذلك الحاكم العثمانى لبلده وأعوانه ، فهاجموا داره ، ولكنهم لم يجدوا فيها وثائق تزج به فى السجن ، فأطلقوا سراحه ، وأخذوا يرقبونه ويضايقونه . حينئذ رأى أهله أن يرسلوا به إلى باريس لإكمال دراسته ، وهناك التقى ببعض الفارين من جماعة

تركيا الفتاة ، وعقد أواصر الصلة بينه وبينهم . ونراه يفكر لا فى العودة إلى وطنه لمقاومة الحاكم المستبد وإنما فى النزوح إلى المهاجر الأمريكى الجنوبى ، ومن أجل ذلك أخذ يتعلم الإسبانية . غير أنه لم يلبث أن انصرف عن هذه الهجرة البعيدة وآثر الهجرة إلى مصر ، فنزل بها فى سنة ١٨٩٢ وكان قد سبقه إليها كثير من أحرار بلده ، فرأى أن ينزل معهم فى هذا الوطن العربى الكريم .

وليس فى ديوان مطران شىء من أشعاره الثورية التى نظمها فى شبابه ضد عبد الحميد وطغيانه واستبداده ؛ وكأنه آثر أن لا يثبتها فيه ، فخصلة تميز بها ، هى خصلة الحذر والاحتياط الشديد وأن لا يعبر عن عواطفه السياسية تعبيراً صريحاً ، بل إن كل عواطفه سياسية وغير سياسية يعنى دائماً بأن يلقى عليها الحجب والأستار ، وكأنه يأخذ بمذهب التقية ، ولعل شعرنا الحديث لا يعرف شاعراً أسرف على نفسه فى اعتناق هذا المذهب كما أسرف مطران . فإذا كل أهوائه وعواطفه الذاتية الخاصة والاجتماعية العامة قد ضُرب عليها حجاب صفيق ، بل حجب صفيقة وأستار كثيفة .

لقد عاهد نفسه منذ حداثته أن يحارب الاستبداد . ولكن أنّى له وهو يأخذ بمذهب التقية والحيطة ؟ إذن فليفكر فى حجاب أو ستار يخفى وراءهما سخطه على الاستبداد والمستبدين ، وهداه تفكيره منذ كان فى لبنان أن يتخذ من التاريخ هذا الحجاب أو الستار الغليظ ، فهو فى الظاهر ينظم فى التاريخ وهو فى الباطن يتحدث عن حرية الشعوب المسلوبة وما ينبغى أن تتسلح به فى مقاومتها لمن سلبوها تلك الحرية من أسلحة خلقية أو مادية ، بل إنه ليدعوها إلى الثورة بهم والانتقاض عليهم ، بل أكثر من ذلك أنه يدعوها للانتقام والأخذ بالثأر وأن يذيقهم نفس الكأس فى حرب عنيفة لا تبقى ولا تذر . وأول موضوع تاريخى نظم فيه ، وهو لا يزال فى وطنه ، هو الحروب بين فرنسا والألمان فى القرن التاسع عشر ، ففى أوائل هذا القرن انتصرت فرنسا على ألمانيا بقيادة نابليون الأول انتصارا حاسما فى موقعة يانا سنة ١٨٠٦ ، وفى سنة ١٨٧٠ ثأرت ألمانيا لنفسها فى عهد نابليون الثالث ودخلت جيوشها باريس . فاتخذ مطران

من هذين التاريخين عنواناً لقصيدته التاريخية الأولى . واستطاعت شاعريته الفذة أن تحوّل نسيج التاريخ إلى نسيج شعرى رائع وصف فيه معركة يانا الرهيبة وصفاً دقيقاً تتلاحق فيه الحقائق وصور الخيال وتمازج تمازجها فى الملاحم البديعة، حتى إذا استوفى ذلك استيفاء قصصياً تاماً انتقل يصور أثر الهزيمة فى نفوس الألمان وما ارتكسوا فيه من ذل ، وكأنه يعبر عن ذل وطنه إزاء العثمانيين :

وأقام أصحابُ البلاد مآتماً ... وكسوا على القَتْلى ثيابَ حِدادِ
ناحتْ عرائسُهم على أزواجها ... والأمهات بكتْ على الأولاد
واشتدَّ حزنهمُ ولم يك مجدياً ... من بَعد فَقْد أحبَّةٍ وبلاد

ولا يترك مطران انتصار الفرنسيين الظالم على الألمان ، فلا بد للظالم من يوم يندب فيـــه نفسه ويبكيها إن نفعه الندب والبكاء . ويولى وجهه نحو التاريخ يلتمس فيه عقاب هؤلاء الطاغين الباغين ، وسرعان ما تتراءى له سنة ١٨٧٠ إنها السنة التى لقى فيها الباغى حتفه واستبيح حماه ، فقد ثأر الألمان فيها لكرامتهم ثأراً لا ينساه العدو الظالم مهما طال به الزمان واستبد به النسيان . فقد انتفض الأحرار الألمان لعزتهم القومية انتفاضة قوية صلبة، فإذا الفرنسيون الطغاة الظالمون يترنحون تحت أقدامهم ملطخين بدمائهم ، وإذا حاضرتهم باريس ترتعد فرائصها وتفتح لهم أبوابها ، فيدخلونها ظافرين منتصرين . وهكذا يسقط كل هيكل للطغيان والظلم أمام الأحرار الثائرين ، يقول مطران مصوراً غضبة الألمان لكرامتهم المثلومة :

يا خجلةَ الأحرار من موتاهمُ ... يَشْوُون حيث المالكون أعادى
فاستعصموا بالصبر ثم تكاتفوا ... وتحرروا من رِقِّ الاستعباد
وتأهبوا للثأر ، والأحقادُ فى ... أكبادهم كالبيض فى الأغماد
حتى إذا اشتدوا وضاق عدوهم ... ذَرْعاً بهم أصلَوْه حرب جهاد

وبَنوا رجاءهمُ على استعدادهم ... لا خير فى أملٍ بلا استعداد
هدموا معالمه، وروَّوا رَدْمَها ... بدماه ، فاختلطا دماً برمـــاد
واستفتحوا باريس فاستوفوا بها ... أوتارهم وشَفَوْا صَدى الأكباد
كلٌّ بمسعاه يفوز . ومن يُنِبْ ... عنه الحوادث لم يَفُزْ بمراد

وواضح ما فى هذا التصوير لظفر الألمان بالفرنسيين من تحريض مطران لقومه على الثورة بالعثمانيين الذين يستبدون بهم استبداداً تأباه النفوس الحرة . وهو لا يعلن ذلك فى جهر وصراحة ، بل يعمد إلى التاريخ يحجب فيه دعوته ويسترها ، حتى لا يؤخذ بقوله .

ويستقر فى مصر بعيداً عن العثمانيين وحكامهم وجواسيسهم ، ولكن التقية لا تفارقه ، فيمضى فى هذا الشعر التاريخى ينفس به عن عواطفه السياسية المكظومة قِبَلَ الخليفة العثمانى وما ينزله بالأحرار من قتل وفتك ، وكان عبدالحميد قد قضى على وزيره مدحت (باشا) المصلح العظيم من زمن بعيد . وما يزال هذا الحادث الأليم وما يشبهه يقض مضجع مطران ويؤذى نفسه إيذاء شديداً ، ولكن كيف يعبر عنه ؟ إن الوسيلة التاريخية معروفة ، ولكن أى تاريخ ؟ فليكن هذه المرة قتل كسرى الباغى لوزيره بزرجمهر العادل الناصح الرشـــيد ، وينظم قصيدته « مقتل بزرجمهر » يصور فى مطلعها هذا الملك الفارسى وكيف أنه كان مطلق اليد فى حكم بلاده ، وكيف انتهى به ذلك إلى طغيان وبغى شديد . يقول :

سَجدوا لكسرى إذ بدا إجْلالا ... كسجودهم للشمس إذ تتلالا
يا أمةَ الفرس العريقة فى العلا ... ماذا أحال بكِ الأسودَ سِخَالا[1]
كنتم كبارًا فى الحروب أعزةً ... واليوم بِتُّمْ صاغرين ضِئالا

وأكبر الظن أنه لا يريد بكسرى إلا عبد الحميد نفسه ، فإن كسرى لم

---

(١) السخال : أولاد الشاة .

يعرف فى تاريخ الفرس بالهزائم المتعاقبة التى أصابت جيوشه ، إنما الذى يعرف بذلك عبد الحميد الذى كانت تعانى جيوشه هزائم متوالية فى البلقان وغير البلقان ، وكانت روسيا وغير روسيا يضيقون عليها الخناق . وينعى مطران على شعب كسرى – وهو يريد شعب عبد الحميد – هوان نفسه عليه وصغاره أمام جبروته وطغيانه ، ولا يلبث أن يقول :

ما كان «كسرى» إذ طغى فى قومه … إلا لما خلقوا به فعّالا
هم حكّموه فاستبدّ تحكّماً … وهمُ أرادوا أن يصول ، فصالا
والجهل داءٌ قد تقادم عهده … فى العالمين ولا يزال عُضالا
لولا الجهالة لم يكونوا كلهم … إلا خلائق إخوةً أمثالا
لكنّ خَفْض الأكثرين جناحهم … رفع الملوك وسوّد الأبطالا
وإذا رأيت الموْجَ يسفل بعضُه … ألفيتَ تاليَه طغى وتعالى
نقصٌ لفطرةِ كلّ حى لازمٌ … لا يرتجى معه الحكيمُ كمالا

ومطران فى هذا المقطع يقول فى صراحة إن الشعب مسئول عن طغيان حاكمه فلولا إفراط الفرس فى تمجيد كسرى وتعظيمه ما انتهى إلى هذا الاستبداد كله . ويرجع ذلك إلى داء قديم فى الشعوب هو داء الجهل الذى يسرى بين الأفراد فإذا هم يعلون ملوكهم ويسودونهم خافضين جناحهم لهم ذلا وصغاراً ومهانة ، وأى شىء هؤلاء الملوك الذين يرفعونهم ويعبدونهم ولكنها الجهالة تعمى أبصارهم وتحط نفوسهم وهو إنما يريد بذلك كله الشعب التركى والشعوب التابعة له التى تحنى رءوسها لعبد الحميد وبغيه وطغيانه ، فإذا هو يرتكب أشنع الجرائم والحماقات . وما يزال مطران ينحى باللوم على شعب كسرى حتى يقول :

لو كان فى تلك النّعاج مقاومٌ … لك لم تجئْ ما جئتَه استفحالا

ويبحث فى الشعب عن مقاوم يصرخ ضد قتل وزيره العادل فلا يجد

obeikandi.com

بينه من يرفع رأسه ضد هذا الظلم الصارخ سوى فتاته ، فتاة الوزير نفسه ، ويعلق على ذلك بقوله :

ما كانت الحسناءُ ترفع سِتْرَها لو أن فى هذى الجموعِ رجالا

وهو هنا يسخر سخرية مرة من الشعوب المسترقة التى لا تناضل عن حريتها وحقوقها السليبة . وكانت شعوب البلقان — كما نعرف — تسجل انتصارات مختلفة على عبد الحميد وجيوشه ، وثار شعب الجبل الأسود فيمن ثار ، وأحرز فى بعض ثورته نصراً مؤزراً على العثمانيين ، أسهم فيه الرجال والنساء جميعاً ، فنظم مطران قصيدته « فتاة الجبل الأسود » يصور فيها مقاومة هؤلاء النساء كما يصور حرب العصابات التى أثارها هذا الشعب الصغير وكيف تفتك بالجيوش الكبيرة . وكأنه يلقى بذلك درساً على مواطنيه أن لا تفت فى عضدهم قلتهم وأنه حرى بهم أن يحوّلوا جبلهم أو جبالهم إلى جبل أسود أو جبال سود ، يسقطون من شعابها على الحكام العثمانيين الغاشمين . غير أن مطران لم يجهر بذلك فى القصيدة ، بل أخفاه بين أطوائها ، فلم يُشر ولو من طرف خفى إلى مقصده ، ولعله كان مضطرًّا إلى ذلك بسبب ما كان يظهره الشعب المصرى وقادته من عطف على العثمانيين فى هذا التاريخ . وقد انتهز فرصة زيارته لأهرام سقارة فنعى على الفراعنة تسخيرهم للشعب فى بناء أهراماتهم ، وكأنه يتخذهم وسيلة للتنديد بالعثمانيين وعدوانهم وبغيهم على الشعوب الموالية لهم .

وتمضى إلى سنة ١٩٠٨ فيكتب النصر لجماعة تركيا الفتاة ، ويرغمون عبدالحميد على الأخذ بسنة الدستور والشورى فى الحكم ، فيقيم النظام النيابى ويعلن أن جميع أفراد رعيته سواء فى الحقوق وأمام القانون . وبذلك تقوض نظام عبدالحميد الاستبدادى وانقض من قواعده ، وهللت الرعية فى الولايات العثمانية للدستور الجديد ، وصفقت طرباً واستبشاراً ، وتغنى به شعراؤها طويلا مؤملين فى غد باسم سعيد . حينئذ يفك مطران عقدة نفسه ويحل حبسة لسانه ، فلا يستعين بالتاريخ ولا يختفى من ورائه ولا يختزن أفكاره فى مكنون أحداثه ، بل يهتف

من أعماقه بقصيدته « تحية الحرية » التى يستهلها بقوله :

حُيِّيت خيرَ تحيَّه يا أختَ شمس البريّه
حُيِّيت يا حريَّه

الشمس للأشباحِ وأنتِ للأرواح
كالشمس يا حريه

أنت النعيمُ وأحلى أنتِ الحياة وأغلى
للخلق يا حريه

شارفْتِنا فانتعشنا وفى ظلالك عشْنا
بالعدل يا حريه

كونى لنا عهدَ سعدٍ وعصرَ فخرٍ ومجد
يدوم يا حريه

ويسترسل فيصور حركة الانقلاب ودعاتها من جماعة تركيا الفتاة وما بذلوا من تضحيات وتجشموا من مشقات ، حتى أذكوا روح الثورة فى الجيش وصفوفه ، فكتب لهم النصر والفوز المبين غير أن الرجعيين كانوا لا يزالون يمنون أنفسهم الأمانى فسوّلوا لعبد الحميد أن يمكر بالدستور الجديد وما هى إلا عشية أو ضحاها ، حتى عُزل عن سلطانه وعصفوا به وبأعوانه . ويستقر الدستور ويتوطد بنيانه وأركانه . ويدور العام الأول ، فيحتفلون بعيده احتفالات شعبية واسعة فى تركيا والولايات العثمانية . ويحيّى مطران هذا العيد بقصيدة طويلة يقول فى تضاعيفها :

ياعيد ذكِّرْ من تناسى أننا لم نك من آبقة العبدىّ[1]

---

(١) آبقة : هاربة ، العبدى : جمع عبد .

كنا على الأصْفاد أحراراً سوى أن الرزايا ألزمتْنا حدَّا
وكلُّ شعب كاسرٍ قيـــودَه بالحق ما اعتدى ولا تعدَّى

ويُشيد بنظام الشورى إشادة بالغة ، ويدعو إلى التعاون والتناصر فى ظل الدستور وأن يتولى مصالح الأمة العثمانية الحاكم البصير والخيِّر العادل الذى يجمعها على الهدى والرشاد

٣

وعلى نحو ما وَعى مطران ظلم العثمانيين لرعاياهم لبنانيين وغير لبنانيين وَعى ظلم المستعمرين الإنجليز لمصر والمصريين ، وكان لهذا الوعى دويُّه الصارخ فى أعماق نفسه . فقد حنَت عليه مصر والمصريون ، وأصبح يشعر بنفس مشاعرهم وعواطفهم السياسية ، ولكن كيف يعبر عنها فى حرية ، وسيف المستعمر مصلت على الرقاب وسجونه مفتوحة للأحرار ، وهو من نعرفه حذرًا وحيطة ؟ لابد إذن من محاورة المستعمر المحتل ومداورته حتى لا يأخذ بالنواصى والأقدام ، وحتى لا يذيقه أغلال السجون . وكان أول ما فكر فيه الحرب الناشبة بينه وبين شعب البوير فى جنوبى إفريقية ، فرأى أن يتخذها بابا ينفذ منه إلى ما يريد من تصوير النقمة على عدو المصريين الغاصب وصَبِّ سخطه عليه ، فنظم ثلاث قصائد ، أولاها فى « الطفلة البويرية » وبيان مقاومة النساء للمستعمر وحرابه وسلاحه ، وثانيتها فى وصف الحرب الدائرة هناك ، جعل عنوانها « حرب غير عادلة ولا متعادلة » وفيها يصرح بالعاطفة المشتركة بين المصريين وبين هذا الشعب الذى يكافح عن حريته ووطنه كفاحاً مريراً ، يقول :

بين الذين يقاتلـــو ن وبيننـــا قُرْبى النِّقَمْ
مَنْ يَسْتَبِحْه عدوُّنا فله بنا صلةُ الـــرَّحِمْ

ويصور تصويراً باهراً المعارك الناشبة هناك بين الوطنيين والإنجليز ، وهم يستميتون فى ذودهم عن حماهم غير مبالين بجحافل العدو الزاحفة ومدافعه وقنابله المصمية ، حتى ردوه فى بعض هجماته على أعقابه ، ويهتف الخليل :

غلبَ القليـــلُ على الكثـ ـير وعفَّ عنه فما انتقم
لكنه مهمـــا يفـــزْ بَدْأً يسُؤْه المختتَم

إن الخاتمة للوطنيين المستضعفين ، والنصر أخيراً سيكون على المستعمرين الظالمين ، ولن تمنعهم جيوشهم ولا عُدَدهم وأسلحتهم ، بل سترد القذائف إلى صدورهم ، فلا بد لكل شعب مظلوم من يوم يدحر فيه ظالمه دحراً ، ويقضى عليه قضاء مبرماً . ومطران فى كل ذلك إنما يتخيل معركتنا المستقبلة مع الإنجليز الذين كانوا يجثمون على ديارنا ويعتصرون طيبات أرضنا ، فلا بد لهم من يوم ترجف بهم فيه الراجفة ، فيولون على وجوههم من ديارنا صاغرين . وقد تحقق رجاؤه مع ثورتنا المباركة وتحقق يوم الجلاء الذى كان ينتظره هو وإخوانه من مثل حافظ وشوقى بقلوب مؤمنة . ونجد نفس العواطف والأفكار فى قصيدته الثالثة وعنوانها «استئناف حرب جائرة» وفيها يصور الفصل الأخير من مهزلة المستعمر فى هذه الديار الآمنة وما ينزله به البوير رغم انتصاره من خسائر فى المهج والأرواح ، ولا يلبث أن يستثير المصريين كى يهبوا فى وجه المحتل الأثيم وينقذوا ديارهم من براثنه ، يقول :

ولقد أرَنُو إلى مصر التى خلَّدَتْها الباقياتُ الصالحاتُ
فأرى روحاً قديماً طائفاً باكياً مما جنتْ «مصر» الفتاة

ولم ترضخ مصر ولا ذلت للمستعمر كما توهم مطران ، إنما كانت تستعد لجلاده وكفاحه ، وقد ظلت تكافحه كفاحاً قاسياً فى هذا القرن ، حتى أسلم واستسلم صاغراً . ومطران إنما يقول ذلك بعاطفة الأخ الشفيق والابن البار يريد أن تثأر مصر لكرامتها وترد العدو الغاصب عن ديارها . وقد عاد إلى

استخدام التاريخ ينفّس به عن عواطفه السياسية المكظومة قِبَل الإنجليز المعتدين وما ينزلونه على المصريين من ظلم وعذاب أليم ، ولكن أى تاريخ ؟ لقد عاد بذاكرته إلى تاريخ أثينا حين ضعفها وما أنزله بها الرومان المستعمرون حين استولوا عليها من بطش وعدوان شديد ، فصور فى قصيدته « شيخ أثينا » صورة هذا العدوان ، وحكى على لسان هذا الشيخ ما صارت إليه بلدته من انحلال وتواكل أعدا للهزيمة ، وأخذ الشيخ يندب الشباب ويبكيهم فقد أذلهم الترف والخوف من الحرب والمجازفة :

يا دهرُ إن كنت لم تمهل شبيبتنا ... حتى أدَلْتَ انحطاطاً من معالينا
فأنت خيرُ مُرَبٍّ للأولى جهلوا ... كجهلنا أنَّ ترك الحزم يُشقينا
فزدْ مصائبنا حتى تنبِّهنا ... تكن حياةً لنا من حيث تُرْدينا
همُ سقوا بدم الأكباد عزمهمُ ... وبات فى صَدإ الأغماد ماضينا
تالله ما غلبونا حيث باسلُنا ... قضى قتيلا ونالوا من نَواصينا
لكنهم غلبونا حين ملّكهم ... أزّمة الأمر شادينا وراضينا
فما همُ بأعادينا ، خلائقنا ... هى التى أصبحتْ أعْدَى أعادينا

ومطران فى ظاهر القصيدة يتحدث عن غزو الرومان لأثينا واليونان واحتلالهم لديارهم ، وهو يضمر فى ذلك احتلال الإنجليز لمصر ، وما ينبغى أن يتسلح به المصريون من حزم وعزم حتى يخرجوا العدو من أرضهم ويطمسوا آثار أقدامه . ويذهب نفس المذهب فى قصيدته « السور الكبير فى الصين » إذ يرمز بها لما أصاب مصر فى عصره من ظلم المستعمر وما كانت تعانيه من ضيم ، ويقول إن السور الكبير فى الصين لم ينفع أهلها ، فلا بد من سور أكبر منه وأضخم وهو سور القلوب القوية والعزائم الصلبة :

ماذا يفيد السورُ حول ديارهم ... وقلوبهم فيها ضعافٌ هُرَّبُ
لا يعصم الأمم الضعيفةَ فطرةٌ ... إلا فضائلُ بالتجارب تُكْسَبُ

فتكون حائطها المنيعَ على العدى   وتكون قوتها التى لا تغلب

ولا نجد لمطران قصيدة يثور فيها ثورة صريحة على المحتل ، فهو لا يحب الصراحة الصريحة ، إنما يحب المواراة والمداورة . ومع ذلك فله مقطوعة نظمها فى سنة ١٩٠٩ حين صدر قانون المطبوعات ، فكمم الأفواه وقيد الحريات ، وفيها يقول :

شَرِّدوا أخيارها بحراً وبَرّا   واقتلوا أحرارها حُـــرّاً فحرّا
إنما الصالحُ يبقى صــالحا   آخرَ الدهر ويبقى الشرّ شرّا
كسِّروا الأقلامَ هل تكسيرها   يمنع الأيدىَ أن تنقش صَخْرا
قطِّعوا الأيدىَ هل تقطيعها   يمنع الأعين أن تنظر شزْرا
أطفئوا الأعين هل إطفاؤها   يمنع الأنفاسَ أن تصعد زَفْرا
أخمدوا الأنفاس، هذا جهدكم   وبه مَنْجاتنا منكم .. فشكرا

وهى على كل حال لا ترتفع إلى قصيدة حافظ القافية التى نظمها بهذه المناسبة والتى سبق أن أشرنا إليها فى فصله الخاص ، فقد ثار حافظ ثورة صريحة على الإنجليز ، وطالب المصريين أن يبذلوا دون حريتهم المسلوبة دماءهم الزكية . والحق أن الشاعرين لم يكونا من طبيعة واحدة ، فحافظ صريح لا يضمر ولا يستر شيئاً من عواطفه ، أما مطران فكان يؤثر كبت عواطفه وأن يلمح إليها من بعيد فإذا خالف طبيعته وأعلن ما أضمره لم يبلغ نهاية الشوط . وحقّاً صرخ مطران فى بعض شعره ولكن لا فى وجه الإنجليز وإنما فى وجه الطليان حين غزوا طرابلس واستباحوا حماها ، فقد نظم ثلاث قصائد فى الدعوة لإعانتها فى محنتها ، وأروع تلك القصائد قصيدته « عتاب واستصراخ » وفيها يستشيط غضباً لا للطرابلسيين وحدهم وإنما للعرب جميعاً ، ويصرخ : لا بد أن ننتصر على الباغين وننكل بهم تنكيلا فظيعا :

إنى لأسمع من حزْب الحياة بكم :   نصراً لأمتنا، سُحْقاً لمن ظَلموا

نعم لتُنصَرْ على الباغين أمتنا ... لا بالدعاء ولكنْ نصرها بكمُ
لتَحيْيَ وليمت الموتُ المحيط بها ... من حيث يدفعه أعداؤنا الغُشُمُ
إن نَبغِ إعلاءها، لاشيءَ يخْفضها ... فهل تموت وفيها هذه النَّسَمُ
الشعب يحيا بأن يُفْدى، ومطعمه ... مالُ البنين مزكًّى والشراب دمُ
عودوا إلى سِيَر التاريخ لا تجدوا ... شعباً قضى، غير من ضَلّوا الهدى وعَمُوا
لا شعب يقوى على شعب فيهلكه ... فإن تَرَ القوم صَرْعى فالجناة همُ
يا أمتي هَبّةً للمجد صادقةً ... فالنصر منكم قريبٌ والمنى أَمَمُ (١)

والقصيدة كلها بهذا الصوت القوى الصريح الذى يشد العزائم ويدفعها دفعاً إلى كفاح المستعمر كفاحاً عنيفاً ، وهو فيها يشيد بالعرب وأمجادهم وبطولاتهم الخارقة .

وتضع الحرب الكبرى الأولى فى هذا القرن أوزارها ، ويقتسم المستعمرون الولايات العثمانية فيما بينهم ، فتأخذ فرنسا لبنان وسوريا ، ويأخذ الإنجليز فلسطين والعراق ، ويصبح العالم العربى جميعه محتلا ويتجمع سخط الشاعر على هذا المصير فى قصيدته « نيرون » وهو فيها لا يثور ثورة صريحة على المستعمرين المعتدين، بل يعود إلى التاريخ ، ويسعفه بسيرة نيرون الطاغية الذى سوّلت له نفسه أن يحرق روما ويلهو بالفرجة على النيران وهى تلتهمها التهاماً وقد ارتكب « نيرون » كثيراً من الفظائع والمخازى، ولا حسيب له من الشعب ولا رقيب ، فنظم فيه مطران هذه القصيدة يصور فيها سيرته الباغية ملقياً مسئولية بغيه وطغيانه على شعب «روما» الذى أفرط فى تمجيده ولم يحاسبه على منكراته ، وهى تقع فى أكثر من ثلاثمائة بيت وقد وزعت على نحو عشرين مقطعاً ، فهى ملحمة كاملة ، وهى تستهل مقاطعها بمقطع يجمل فيه مطران الفكرة السياسية التى يريدها من نظمها ، وهى أن الشعب مسئول عن طغيان

(١) أمم : ميسورة .

حاكمه وفساده ، وهو ينحى فى المقاطع جميعها باللائمة على هذا الشعب :

ذلك الشعبُ الذى آتاه نَصْرًا ... هو بالسُّبَّة من «نيرون» أحْرَى

أى شىء ٍ كان «نيرونُ» الذى ... عبدوه ؟ كان فَظّاً الطبع غِرًّا

قَزْمَةٌ هم نَصبوه عاليـا ... وَجثوْا بين يديه فاشمخَرَّا[1]

ضخَّموه وأطالوا فَيْئَهُ ... فَرَامى يملأ الآفاق فُجرًا[2]

منحوه من قُواهم ما به ... صار طاغوتاً عليهم أو أضرَّا[3]

مدَّ فى الآفاق ظلا جائـلا ... هو ظل الموت أو أعدَى وأضْرَى

إنما يبطش ذو الأمر إذا ... لم يخف بَطش الأولى ولَّوه أمرا

ويأخذ مطران فى بيان مآسى حكمه وفظاظة طبعه وقسوة قلبه ، وقد انهال على الرومان يفتك بهم ،حتى أمه التى حملته فى بطنها وهناً على وهن قتلها ومثَّل بها ، وشعب روما من حوله يبالغ فى تعظيمه راكعاً عند قدميه . ويذم مطران هذا الشعب الجاهل الذى «أغرى» نيرون وأضرابه من الباطشين بالظلم ، وإنه ليمد له فى ظلمه بما يكيل له من المدح والثناء ، حتى ليظن نفسه قادراً على كل شىء مبدعاً لكل فن حتى التصوير والتمثيل ، والشعب يشايعه ويُرخى له فى عنان أوهامه حتى تصيبه لوثة ، فيحرق روما ويرقص على نغم اللهب المتصاعد فى السماء . وفى أثناء وصف مطران لهذه السيرة السيئة ينعى على الرومانيين دائماً ذلهم وخنوعهم لهذا الطاغية المجنون الذى مدّوا له فى أسباب طغيانه :

ليس بالكفء لعيش ٍ طيب ... كل من شقَّ عليه العيش حُرًّا

---

(١) اشمخر : تعالى ، القزمة : القصير القمىء .

(٢) الفىء : الظل ، الفجر : الفجور .

(٣) الطاغوت : الشيطان .

obeikandi.com

من يَلُمْ نيرون إلى لائمٍ أمةٌ لو كهرتْه ارتدّ كهْراً(١)
أمة لو ناهضته ساعةً لانتهى عنها وشيكاً وانبجراً(٢)
كلُّ قومٍ خالقو « نيرونهم » «قيصرٌ» قيل له أم قيل «كسرى»

ومطران فى كل ذلك إنما يصور طغيان المستعمرين وبغيهم على العرب وعدوانهم ، ولكنه على عادته لا يصرِّح ، وإنما يرمز ويلوِّح .

على أنه ينبغى أن نشير إلى أن هذه الطريقة عنده قد أتاحت لشعرنا العربى الحديث أن يثبت قدرته على التعبير القصصى . ومن غير شك استوحى مطران فى هذا الصنيع ما قرأه فى الشعر الغربى من قصائد قصصية ، ولكنه لم يخرج إلى صنع ملاحم كبيرة ، فلم يكن هذا همه إنما كان همه أن يفصح عن طغيان العثمانيين والمستعمرين بالشعوب العربية وإهدارهم لحرياتهم . ومن هنا نلمح فى تاريخياته وقصصياته آراءه وأفكاره وموضع شكواه

---

(١) كهرته : انتهرته .
(٢) انبجر : ارتدع .